

المدح النبوي في شعر عبد الله بن أبي الخصال الأندلسي

أ.م.د. عباس يداللهي فارساني (الكاتب المسؤول)

الباحث صفاء غني عبد الزهرة

جامعة شهيد تشمران أهواز

المقدمة:

إن المدائح النبوية تحتلّ مكانة مرموقة وسامية في الشعر العربي، إذ تتميز بالجدة والإبداع في الصدق والتضارب في التعبير، وكان حبّ الرسول الأمين (ص) والقُدوة الحسنة، هو الدافع الرئيس للإنشاد. من ثمّ، راح الشعراء يقدّمون مدائحهم على أعتاب الرسول (ص). إذا تأملنا في هذا الفنّ الراقي في الأدب العربي من قديم الزمن إلى يومنا الراهن، نجد أنّ هذا النمط الشعري يتميّز بالامتداد الزمني المتجذر في كيان المسلمين خلال الحقب الطويلة؛ فلا نغلو إذا قلنا إنّ المدائح النبوية تتسم بالشمولية والكثرة عبر الدهور، لأنّ الشعراء حاولوا في هذا المضمار الإحاطة بكافة السّمات الخلقية والخلقية والسيرة العطرة لنبي الرحمة (ص). فمن هذا المنطلق، تطرقوا إلى وصف خصائله النبيلة وجبّلته الكريمة وإظهار الشوق لرؤيته وزيارة قبره والأماكن المقدسة التي تمتّ بصلة وثيقة إلى حياة النبي الأكرم، مشيدين خلال أشعارهم بمعجزاته المادية والمعنوية وغزواته وصفاته المجيدة. من أهمّ أسباب اختيار الموضوع ما يتمّ تقديمها:

١- الحبّ العظيم للنبي الأمين وما يخامر كياننا من مشاعر دفيئة ولواعج كريمة وأحاسيس مرهفة تجاه الأسوة الحسنة ورحمة العالمين، والرغبة في الإبانة عن هذا النمط من الاتجاه الفكري عند أبي خصال الأندلسي.

٢- ازدهار هذا الفنّ في الأندلس بشكل يلفت الانتباه، ويعود ذلك إلى عدّة أسباب، منها الظروف المعينة التي تعيشها البلاد من تدهور الأوضاع في الأندلس، من حروب طاحنة وغزوات ونكبات أدّت إلى توجّه الشعراء إلى كتابة الشعر وقصائد المدح للرسول (ص)، والتوسل إليه ليكون شفيعاً وعوداً لهم في المحن.

٣- العثور على النتاج المعرفي والديني عند أبي خصال الأندلسي، بوصفه واحدًا من الشعراء الأندلسيين، والذي أصبح مغمورًا في هذا المضمار والفن الأدبي الراقى.

تحاول هذه الورقة البحثية الإجابة عن الأسئلة التالية:

يحاول البحث طرح سلسلة من الأسئلة التي تشكل الإجابة عنها ضمن هذه الدراسة، منها ما يلي:

١- ما المقصود بفنّ المدح النبوي ومضامينه في الشعر الأندلسي عامّة، وشعر ابن أبي الخصال خاصّة؟

٢- ما أهمّ الدوافع التي ساقّت الشاعر الأندلسي مساق الإنتاج الشعري في المدح النبوي؟

٣- ما أهمّ المحاور الرئيسة لفنّ المدح النبوي عند ابن أبي الخصال الأندلسي؟.

تناول الباحثون والدارسون تحليل شعر هذا الشاعر الأندلسي من جوانب مختلفة ودقّقوا النظر فيه، إلاّ أنّهم لم يعالجوا فنّ المديح النبوي ضمن معطاه الشعري الخصب. من أهمّ الدراسات التي تمّ نشرها في تحليل شعره، ما يتمّ تقديمها على النحو التالي:

أبو عبدالله ابن أبي الخصال؛ حياته ونثره: رسالة ماجستير. أبو الذهب مصطفى محمد مفلح مصطفى، الجامعة الأردنية، ١٩٨٨م.

فنّ الرسالة عند أبي عبدالله بن أبي الخصال الأندلسي دراسة فنية أسلوبية، رسالة ماجستير، محمد لخضير بن ناجي، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ٢٠١٥م.

أفعال الكلام وتداولية النصّ الشعري؛ شعر ابن أبي الخصال الأندلسي أنموذجًا: سمير جعفر ياسين، مجلة آداب المستنصرية، العدد ٧٥، ٢٠١٦م.

صورة الآخر في رسائل ابن أبي الخصال الأندلسي، محسن دعدوش عبدالرضا، وصادق جعفر عبدالحسين، مجلة العلوم التربوية والإنسانية، جامعة الإمارات المتحدة العربية، العدد ٥، مج ٥، ٢٠٢١م.

البنية السردية في مقامة ابن أبي الخصال الأندلسي: الشال محمد عبدالله عباس، مجلة سرديات. الجمعية المصرية للدراسات السردية، العدد ٢٤، ٢٠١٧م، صص ٢٥٧-٢٢٦.

-الشاعر في سطور:

اختلف الباحثون في تحديد شخصية ابن أبي الخصال وسيرة حياته، كلُّ يتحدّث عنه بحسب معرفتهم به، لأنّه شخصية بارزة وله شأن كبير. هو الوزير، الكاتب، الشاعر. هو أبو عبد الله محمد بن مسعود بن طيب بن فرج بن خصلة بن أبي الخصال الفافقي، وله تفنن في العلوم والآداب^(١)، وذكر بأنّه شاعرٌ متقدّم في اللغة والآداب والكتابة والخطابة والشعر^(٢). ولد سنة (٤٦٥ هـ)، وينتمي الى قبيلة غافق. أصله من "فرغليط"، إحدى قرى "شقورة" من كورة "جيان"، ويكنّى بأبي الخصال، ويلقّب بذي الوزارتين^(٣). نشأ ابن أبي الخصال في ظلّ أسرة أدبية، وكانت أسرته موصولة بالعلم، أصيلة فيه. كان أبو عبد الله ابن أبي الخصال من أهل المعارف الجمّة والإتقان لصناعة الحديث، والمعرفة برجاله، والتقييد لغريبه، وله معرفة بالعربية واللغة والأدب والنسب والتاريخ. أمّا الكتابة والنظم، فهو إمامهما^(٤). انتقل ابن أبي الخصال إلى قرطبة، فصار يقال فيه "قرطبي"، ولا تغفل كتب التراجم أنّه "فرغليطي" شقوري^(٥)، وفيها تلقى علومه الأولى وتردّد على ما حولهما من المدن، للاستزادة من وجوه الثقافة والمعرفة. ترقى أبو عبد الله ابن أبي الخصال في الخدمة السلطانية، فكتب لعلي بن يوسف بن تاشفين، وهو والٍ على غرناطة وأختصّ في مدّة إمارته للمسلمين بالكتابة عن أبي يحيى أبي بكر بن أبي عبد الله محمد بن الحاج، ثم انتقل مع بني الحاج هؤلاء إلى فاس. كان كثير التنقّل مع بني الحاج؛ حيث أدّى إلى انتقاله في المغرب والأندلس، مصطحبًا بعض الأمراء المرابطين، وامتولياً الأعمال الإدارية والكتابية لهم. تدلّ التواريخ الباقية من الرسائل الصادرة عن الأمير علي بن يوسف بقلم ابن أبي الخصال على طول مدّة خدمته في الدولة، والمدن التي استقرّ فيها من أجل الخدمة السلطانية هي قرطبة، وبلنسية، وسرقسطة وفأس وسبتة^(٥).

من أهمّ تأليفاته: كتاب سراج الأدب^(٦)، وكتاب المنهج في معارضة المبهج^(٧)، وكتاب ظلّ الغمامة وطوق الحمامة^(٨).

-مصطلح المديح النبويّ:

المديح النبويّ هو الشعر الذي ينظمه الشعراء في مدح النبيّ (ص) بتعداد صفاته الخُلقية والخلقية، واصفين الشوق لرؤيته وزيارة قبره وغيره من الأماكن المقدسة التي تتصل بحياة الرسول الأكرم (ص)، ذاكرين مختلف معجزاته ومراحل سيرته وأحداثها، وكذلك غزواته وما إلى ذلك. من النقاد المعاصرين من قام بتعريف هذا المصطلح قائلاً: إنّ المديح النبويّ فنّ من فنون الشعر التي أذاعها تصوّف، فهو لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع، لأنها لا تصدر إلاّ عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص^(٩). يبرز الشاعر المادح في هذا النوع من الشعر تقصيره في أداء واجباته الدينية ويذكر ذنوبه، مناجياً الله تعالى بصدق وخوف، وينتقل إلى الرسول (ص) متوسلاً إليه. يتداخل المديح النبويّ في الغالب مع قصائد الزهد والتصوف لما بينهما من علاقة وثيقة. إنّ المديح النبوي لا يشبه المديح الخالص بأنواعه من تكسب أو تملق وغيره، وإنّما هو مديح يوجّه إلى أفضل خلق الله محمّد (ص). فالمراد بالمديح النبويّ أو المدحة النبوية، ذلك الفنّ الشعري الذي يتخذ موضوعه الثناء على شخصية النبي محمّد (ص). عندما حاول الشعراء مدح النبيّ ونبوّته، "فقد امتدحوا آله وأهل بيته، ويدفعهم الألم والحرمان في كثير من الأحيان، فأظهروا عاطفة الدين ممزوجة بعاطفة السياسة، وقد ألحوا على تصوير الفواجع التي ألمت بأهل البيت كاستشهاد الإمام الحسن والحسين (ع) ، وإحياء تلك الذكرى في المأتم"^(١٠).

-نشأة المدائح النبوية:

ثم آراء متعددة حول نشأة المديح النبويّ، فهناك اختلاف بين الباحثين، منهم من قال يرجع ظهوره في المشرق الإسلامي إلى ظهور الدعوة الإسلامية وانتشار الفتوحات الإسلامية، وخاصة مع جمهور الصحابة عند الشعراء الذين يمدحون الرسول (ص)، وكان أولهم وأشعرهم في نظر القدامى وأكثرهم شعراً، هو حسّان بن ثابت الأنصاري الذي تلقّب بشاعر النبيّ، وفيما يلي كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحه. فنتوجه نحو شعر حسّان بن ثابت الأنصاري عند وفاة الرسول الأكرم (ص)، نجده يجمع بين الحزن لوفاته وبين الإشادة بفضائله الكريمة، وأخلاقه السامية، أي استطاع أن يجمع بين المديح النبوي والثناء يتداخلان معاً، قائلاً:

نَبَّ المساكين أنَّ الخَيْرَ فارقمهم مع النبي تولى عنهم سحرا
 من ذا الذي عنده رحلي وراحتي ورزقُ أهلي إذا لم يؤنّسوا المطرا
 كان الضياءَ وكان النُّورَ نتبعه بَعْدَ الإله وكان السَّمْعَ والبصرا(١١)

نلاحظ خلال هذه الأشطر الشعرية أنّ المدح النبويّ في بداية الأمر اصطبغ بطابع القيم التقليدية، ويعود ذلك إلى أنّ الشعراء لم يفقهوا الدين الجديد، ولم تدخل في روعهم مفاهيمه، ولذلك لم يظهر التأثير القويّ به، فكانوا لا يعرفون كيف يخاطبون صاحبها، إذ يمدحون النبي الكريم (ص) بالقيم التي كانت موضع فخر في الجاهلية، وكأنّهم يمدحون ملكاً أو سيّداً، وليس نبياً مرسلًا. فالقيم الإسلامية أخذت تظهر في مخاطبة الرسول الكريم (ص) ومدحه، وخاصّة عند الشعراء من الصحابة، الذين لم يقتصروا على ذكر صفاته الجليلة وأخلاقه العظيمة، بل تحدّثوا عن هدايته، وأوردوا المعاني الدينية في مدحه (١٢).

منهم من قال إنّ نشأة المدائح النبوية كانت فنّاً مستحدثاً جديداً على البيئة الإسلامية، ويعدّ القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة من المصادر التي تستوحي منها القصائد ودواوين المديح النبويّ مادّتها الإبداعية، وكذلك كتب التفسير والسيرة النبوية التي فصلت حياة الرسول تفصيلاً كبيراً (٣).
إرهاصات المدح النبوي في الأندلس:

إذا أردنا العثور على أهمّ الأسباب والدافع التي ساقط الشعراء مساق هذا اللون الشعري، فعلينا أن نلّم بظروف البيئة الأندلسية المحيطة بهم بكافة المستويات، فهنا نوجز الكلام في أهمّها وأبرزها شيوعاً ودوراً:

١- نشوء الحروب الصليبية

٢- انتشار الزهد والتصوف

٣- كثرة الزلازل والجوائح والمجاعات التي أصابت المجتمع الأندلسي، ومن هنا لم يجد أهلها سوى اللجوء إلى الله تعالى، نجاة من هذه الكوارث والمصائب، معتقدين بأنّ "الرسول هو المثل الأعلى، والإنسان الكامل، وأفضل الخلق، وسرّ الكون، وعماده الرئيس، وقوّته المدبرة، والوساطة بينه وبين الحق وسبب الهداية" (٤).

٤- عناية الممالك بموسم الحجّ: إذ احتفلوا بهذه القضية الإسلامية لما لها من مكانة راقية بينهم. كلّ ذلك أوجع الشوق في قلوب الناس عامة، ولا سيّما عند المتصوفة، فاندفع كثير منهم إلى المدينة المنورة مهاجراً ليكون جازراً للرسول، ليروي بذلك ظمأ قلبه المحبّ المشتاق (٥).

٥- سقوط المدن الأندلسية: اجتاحت كثرة الفتن والأزمات الأندلسيين، نتيجة ما ألمّ بدولة الموحدين من ضعف وتفكك على أيدي الصليبيين الذين استطاعوا احتلالها. حين اشتدّ الضعف بدولة الموحدين "وأخذت المدن

الأندلسية تسقط تبعاً في حجر النصارى الشماليين، تكاثر المدح النبوي، إذ اتخذ الشعراء الأندلسيون أداة للاستغاثة والاستجد بالرسول الكريم لإنقاذهم من محتهم، وكانوا لا يكتفون بنظم الأشعار النبوية، إذ كانوا يرفقونها برسائل إلى القبر النبوي الشريف، واصفين ما يعانیه وطنهم من محن خطيرة" (٦).

-مضامين المدح النبوي في شعر ابن أبي الخصال الأندلسي:

أولاً: الشوق لرؤية النبي والحنين إليه:

حُظي الرسول محمد (ص) منذ عصر صدر الإسلام إلى يومنا هذا بحبّ المسلمين، وتقديرهم وإيثاره على أنفسهم، وقد كشفت قصائد الشعراء منذ ذلك الوقت عن حبهم وولائهم للنبي، بعيداً عن التكسب والاستزاق، فوصفوا الخصال الحميدة التي تميّز بها بعاطفة جيّاشة وصدق فني(٧).

لم تكن شخصية الرسول (ص) شخصية اعتيادية، وإنما هي شخصية فذة استطاعت أن تنتشل الناس من الجهل والضلالة والحيرة إلى الهداية والرشاد. حظيت هذه الشخصية بحبّ الشعراء وإعجابهم وتقديرهم، وأصبحت قصائد المديح النبوي تعبيراً عن مشاعر الحبّ والوفاء والرجاء، ومتنفساً لبؤس الحياة السياسية والاجتماعية الذي ساد المجتمع، ووسيلة للتقرب إلى الله تعالى، وغفراناً للذنوب والخطايا، وعدت سيرته شعلة تنير العقول والقلوب، وتكمل مكارم الأخلاق، وتزيد المسلمين هداية ورفعة (٨).

شاعرنا، ابن أبي الخصال، كان واحداً من أولئك الشعراء الذين تغنّوا بفضائل الرسول (ص)، وبمعجزاته وشمائله المعروفة. هي صفات خلقية استمدّها الشاعر من ثقافته الدينية المستقاة من الكتاب والسنة، وكتب التفسير والسير. من نماذج شعره في مدح الرسول الأكرم (ص)، تلك القصيدة المعنونة "معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب"، وهي قصيدة طويلة نظمها في ذكر نسب النبي (ص) وبيان معجزاته ومناقب أصحابه، قائلاً فيها:

إليك فهمي والفؤاد بيثرب وإن عاقني عن مطع الوحي مغربي
 وديني على الأيام زورة أحمد فهل ينقضي ديني ويقرب مطلبي
 وهل أردن فضل الرسول بطيبة فيا برد أحشائي ويا طيب مشربي
 وهل فضلت من مركب العمر تبلغني أم لا بلاغ لمركب؟
 ألا ليت زادي شربة من مياهها وهل مثلها رياء نغلة مذنب؟^(١٩)

إنّ الممعن في هذه الأشطر الشعرية يجد أنّ الشاعر قد ألمّ في قصيدته المطوّلة بكلّ ما يحيط بهذه الشخصية الغدّة والتي لا مثيل لها بين أبناء البشر. فمن هذا المنطلق، ينوّه بفضائله وما يتّسم كيانه الكريم بسمات خُلقية وخلقية بارعة. هذه الواعج وكثرة الشوق لزيارة النبي الأمين يثيرها البعد المكاني عن الرسول، وضاعفته الكوارث والفتن التي ألمّت بالمجتمع الأندلسي، فضلاً عن تكالب الأعداء على البلد للانتقامه. هذه السمات الشريفة كفيلة بأنّ البشر كلّهم يتّخذونه قدوة حسنة عبر القرون والدهور. من الباحثين من ذهب إلى أنّ التعلّق بهذه الفضائل النبوية يمثّل "تعويضاً عمّا أحسّ به الشاعر مما ضاع عليه من فرصة أداء الفريضة وزيارة قبر النبي (ص)"^(٢٠).

ثانياً: الشوق إلى زيارة الأماكن المقدسة:

إنّ الشوق إلى زيارة الأماكن الحجازية المقدسة، موضوع قديم متجدد متعلق بأداء فريضة الحج، وشعر الاستجداء، وما حلّ بالنفس، من الشيب والسقم والبلاء بالأندلس من الولايات والحروب، وما يشعر به من الشوق والهيام في زيارة قبر النبي محمّد (ص) والأماكن التي شهدت مهد الرسالة المحمّديّة. من نماذج شعره ما يقول:

هل	أقولنَّ	لمغلتني	وهي	بالدمع	ترتدي
والسُرى	قد	رمت	في	حمى	ذلك الندي
اجزعي	أو	تجلدي	هذه	داؤ	أحمد
هذه	تربة	الهدا	ة	فضلي	أو اهتدي(٢١)

إذا تأملنا في الشعر الأندلسي عامّة، وشعر ابن أبي الخصال الأندلسي خاصّة، نجد أنّ هذا الشوق يصدر من مصادر عدّة، منها: الدافع الديني (بعد الديار الأندلسية عن المشرق الإسلامي، نشوب الصراعات الدينية في البيئة الأندلسية، وفساد الأخلاق الاجتماعية والسياسية)، والدافع النفسي (الابتعاد عن الوطن)، والدافع الاجتماعي (الشعور بالغربة، والبحث عن الاستقرار والأمن)، والدافع الموضوعاتي (كثرة الكوارث والأزمات، وسقوط المدن الأندلسية واحدة تلو الأخرى). لا يخامرنا أدنى شك بأنّ ترديد هذه الأماكن المقدسة عند الشاعر يجسّد تجربة الحنين وميله الجارف إلى شدّ الرحال لزيارتها. بناء على ذلك، يعتبر هذا النمط البياني ضرباً من ضروب إحساس الشاعر بما ألمّ به من مرارة الحنين والشعور بالاغتراب بسبب تواجد المسافة الكبيرة بينه وبين هذه الأماكن المقدسة. فجاء هذا الشوق معبراً عن اتجاهه الديني الذي تبلور في الشوق والحنين. إذن، يكثر الشعراء الأندلسيون من "تصوير حنينهم الجارف لرؤية الأماكن المقدسة، ويصورون مقدار الحرقة والألم عندما يرون المسافرين قد زمّوا الإبل وتوجّهوا للرحيل"^(٢٢).

ثالثاً: التوسّل وطلب الشفاعة:

يعد الحصول على الشفاعة والغوث، من المضامين النبويّة الأخرى التي افترشت مساحة كبيرة من النتاج الشعري عند الشاعر الأندلسي. فقد سادت النزعة الصوفية المدحة النبوية، حتى أصبحت منطوية على التوسّل والشفاعة. يستهلّ الشاعر قصيدته بتوجيه الخطاب بشكل مباشر إلى النبيّ الكريم (ص)، طالباً

منه الشفاعة، ونراه أحياناً يتوجه بحديثه إلى الله تعالى، سائلاً إياه جلّ وعلا الصلاة والتسليم على النبي الكريم، ويخلص من ذلك إلى مدح النبي. من نماذج قوله ما يأتي:

يا رسول الملك نفسي تتوقُّ	وذنوبي	مثبطات	تعوقُّ
كم تعرضت للقبول ولكن	ليس	المبهرج	سوقُّ
قيدتني الذنوب بل أسكرتني	فصبوح	لا ينقض	وغبوقُّ
ما اعتذاري من بعد خمسين ولت	مثل ما	أومضت ببحر	بروقُّ(٢٣)

هنا يتوسّل الشاعر إلى الرسول الكريم (ص)، فيبثّ آلامه، ويشكو ذنوبه التي أثقلت كاهله، ويرجو أن يكون شفيعه يوم الحساب، شأنه شأن جميع شعراء الأندلس(٢٤).

من الواضح أنّ هذه الأبيات تتحى منحى الشعور بالذنب، فالشاعر يتوجه بمديحه إلى الرسول الأعظم ملتسماً منه الشفاعة، ليمحو ذنوبه ويقوي ضعفه؛ لعلّه يستوجب العتق والمغفرة. فيقف باكياً شاكياً متوسلاً ضارعاً نادماً تائباً، ويعترف باقتراف الذنوب طامحاً في طلب العفو عنه وعن أمته.

لا بدّ لنا أن نشير - ونحن بصدد هذا الموضوع (طلب الشفاعة) - إلى أنّ الشعراء الأندلسيين كانوا يجدون في مدائحهم النبوية متنفساً، لما يعانيه المسلمون في ذلك الوقت من حروب ومحن مع الاسبان النصارى، وقد اتخذوا من ذلك المديح أداة ناجعة للاستغاثة والاستجداء بالرسول الكريم (ص)، لإنقاذهم من محنتهم(٢٥).

رابعاً: تعداد مناقبه ومعجزاته:

لا يخامرنا أدنى شك بأنَّ السَّمات الخُلقية والخَلقية للرسول الأمين (ص)، كانت من أهمّ الحوافز التي ساقَت الشعراء الأندلسيين عامّة، وشاعرنا خاصّة مساق تصوير هذه السمات النفسية والروحية الرائعة التي كان أبناء البشر على مرّ القرون والدهور ينوّهون ويستضيئون بها. إنَّ المتأمل في الشعر الأندلسي يجد أنّ تصوير هذه المثل الأخلاقية والنبيلة تدلّ على حرص الشعراء وتكالبهم على الحصول على كل ما هو مطلوب و مرجوّ في كافّة المستويات؛ فالشاعر الأندلسي دومًا يحاول تعظيم هذه الخصال والشمائل الرفيعة والكريمة، من أجل تقديم النبي الأكرم (ص) نموذجًا تامًا وواعيًا لأبناء البشر، ليتخذوه أسوة حسنة وسراجًا منيرًا في دياجير الحياة وظلماتها من جانب، ونجده من خلال تصوير هذه الشمائل الكريمة تقديم النموذج المعرفي الكامل للمجتمع الأندلسي الذي يعاني الانحراف والشذوذ الخلقي، ومظاهر البذخ والتترف من جانب آخر. ومن هنا، يتّضح لنا أنّ الشاعر كان ولايزال يريد في هذا المجال تحقيق هدفين أساسيين: الأول تعظيم النبي الأمين (ص)، وتجسيد تلك الخصال الرائعة والنبيلة، والثاني تخليص المجتمع الإسلامي عامّة، والمجتمع الأندلسي خاصّة من الأزمات الروحية والنفسية التي ألمّت بها إثر التدهور الخلقي و الضعف الديني، من خلال تقديم هذه الشخصية العظيمة، كالسبيل الوحيد للتخلّص من هذه الكوارث والمصائب.

من نماذج قوله ما ورد:

ولما قضينا من منى كلّ حاجةٍ ومسّح بالأركان من هو ماسخ
وشدّت على جذب المهاري رحالنا ولا يعلم الغادي الذي هو رائخ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطخ^(٢٦)

خامسا: الحديث عن الغزوات:

كان نشوب الحروب الطاحنة والغزوات ضدّ المشركين والأعداء لنشر الثوابت الدينية وتعظيم الشعائر الربّانيّة، من أهمّ المجالات والقضايا الفكرية التي تناولها الشعراء ضمن معطياتهم الأدبية. فالشاعر الأندلسي كبقية الشعراء في العصور الأدبية السابقة، حاول توظيف هذه الحروب ضمن معطاه الأدبي لتسليط الضوء على ما يكمن في هذه الحروب مع الأعداء من تجارب خصبة وحكمة نافعة، محاولاً من خلالها تطبيق هذه الحروب على ما جرى في البيئة الأندلسية من حروب مدمّرة إثر سقوط الدول واحدة تلو الأخرى، لإسداء النصح وتجنّب الحروب، لما فيها من مغبّات لاتعوّض ولاتحمد، والتي تؤدي إلى التدمير والهلاك من جانب، وتذكير المجتمع الأندلسي بما يجب على كلّ مسلم من معاملة الأعداء اللدّ الذين يريدون بطش المجتمع الإسلامي وتهديمه من أجل التنازل عن الأسس والقواعد الدينية، لإماطة اللثام عن مؤامراتهم ودسائسهم ضدّ المجتمع الإسلامي من جانب آخر.

إنّ المتأمل في مثل هذه الأشطر الشعرية، يجد أنّ شخصية النبيّ الأكرم (ص) تتسم بالبطولة والشجاعة والمثابرة والصمود ضدّ كل من خالف الشعائر الدينية. فمن هذا المنطلق، حاول الشاعر الأندلسي عبر تصوير هذه الحروب، الإشادة بقوة النبيّ الأكرم (ص)، وبسالته وشجاعته دون شئ من الخوف أمام الأعداء والناصبين له الحرب. إذن، هذه القوة والشجاعة تثير في كيان المسلمين الحماسة والمثابرة ضدّ العدو.

من نماذج قوله ما ورد:

أبرخ وطالب بباقي الدهر ماضيه فيومٍ بدرٍ أقامَ الفيءَ في فدكِ
وكم مضى لك من يوم سموتَ به في مأقِطِ برماح الخطِّ مشتبكِ
فحصُ القباب الى فحص الصعاب أور يولِةً....؟ مداسات الى السككِ
وكم على حبر محمود وجارته للروم من مرّ شكل غير مترك^(٢٧)

من الواضح عبر امتداد هذه شبكة النصّ الشعري أنّ الشاعر يشيد بقوة النبيّ الأمين (ص) في غزوة "بدر"، فهذه الحرب هي التي تمثل أحسن تمثيل شجاعة النبي (ص)، وحفاظه على بتّ الأسس والقواعد الدينية ضدّ الأعداء في المجتمع الإنساني بكلّ ما لديه من إمكانيات وطاقات، خدمةً للدين الحنيف وأسس السامية.

سادسا: معجزة الإسراء والمعراج:

تميّز النبيّ الأمين (ص) عن سائر الأنبياء بليلة المعراج والإسراء، ويعدّ من أهمّ الشخصيات التي استوعبت اهتمام المبدعين من الشعراء والنقاد. من هنا، تطرّق الشعراء منذ الجاهلية إلى يومنا الراهن إلى وصف هذه الواقعة، وما فيها من بدائع وجمال وإعجاز ربّاني، اعترافاً منهم بفضله على أبناء البشر كافة. عالج الشاعر الأندلسي هذه المعجزة النبوية ضمن نتاجه الأدبي الذي يدلّ على سعة فكرته، ونضج ثقافته الدينية، وإلمامه بالحوادث التاريخية، والقضايا الإسلامية في البيئة الأندلسية التي أحسّ فيها بالاعتراب عن المجتمع الأندلسي كلّهُ.

إنّ الممعن في طيات الشعر الأندلسي يجد أنّ الشاعر الأندلسي قام بتوظيف هذه الواقعة عبر النصّ الأدبي لبلورة عدّة أغراض، منها تمجيد شخصية النبيّ الأكرم (ص)، وما يتّسم النبيّ العظيم بمعجزات وخوارق العادة، والتعبير عن نضج ثقافة المسلمين الدينية في البلدان الأجنبية، كما نلاحظ هذه الظاهرة عند الشعراء المهجريين الذين أقاموا بالبلدان الأجنبية، محاولين نشر الثقافة الإسلامية والذبّ عنها، ومن هنا اتّخذ الشاعر هذا المنهج الفكري طريقة نحو السموّ والتألق و التميّز والإبداع.

من نماذج شعره ما ورد:

وحلّ بأرمينية تحت حفظه لدى ملكٍ عن جانبيه مذنب
فلما تجلى الرّوع بعده إلى حرمٍ أمنٍ لأبنائه اجثبي
وقد كان ردّ الله عنهم كليمه لياليّ يدعو دعوة المتغضب
وجاء بنو يعقوب يشكون منهم ينادونه هذا قتيلاً وذا سبي^(٢٨)

المتأمل في الشعر الأندلسي يجد أنّ الدوافع المختلفة قد ساقطت الشعراء نحو التعبير عن فكرة معجزات النبيّ الأمين (ص)، خاصة ليلة المعراج والإسراء، منها ما يعود إلى دوافع نفسية، وشخصية، واجتماعية إثر الأزمات والكوارث التي ألمّت بالمجتمع الإنساني. فمن هذا المنطلق، بذل الشاعر الأندلسي كلّ ما لديه من طاقات وجهود تعبيرية، لاستنهاض الهمم وإيقاظ النفوس لأخذ العبر من حياة الرسول (ص)، طلباً للعون وتجسيماً لما في شخصيته الرائعة من خصائل حميدة توجب اتباع نهجه الكريم وهديه النبيل.

سابعاً: الاستنجا بالرسول الكريم:

يعدّ الاستنجا بالشخصية المحمدية (ص) من المحاور الفكرية الأخرى التي افترشت مساحة كبيرة من المعطيات الأدبية لدى الشعراء الأندلسيين منذ غابر الأزمان. فالذي لا ريب فيه أنّ هذا المحور يعدّ من المفردات المهمّة في المديح النبوي، لأنّ الشاعر لا يريد من خلال التطرّق إليه، الحصول على المكاسب المادية أو الدنيوية، بل يستخدم الطاقات التعبيرية للعثور على الشفاعة وطلب العفو ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون. ومن ثمّ، كانت هذه الفكرة خامرت كيانه واعتصرت نفسه وأثارت في داخله اللواعج النفسية، بسبب ذنب اقترفه، أو شعوره بعظمة المعصية أو الرثاء لنفسه. فالشاعر على ثقة تامّة بأنّ الرسول الأكرم (ص) كهف التائبين إلى الله جلّ وعلا وملاذ المذنبين. بناء على ذلك، خصّ الرسول (ص) باللجوء دون غيره.

من نماذج قوله ما ورد:

فمن لي وأني لي بريحٍ تَحْطِيْ
إلى الهاشمي الأبطحي محمد
إلى صفوة الله الأمين لُوحيه
لى ابن الذبيحين الذي صيغ مجده
إلى ذروة البيت الرفيع المُطَبِّب
إلى خاتم الرُّسُل المكين المُقَرَّب
أبي القاسم الهادي إلى خير مَشْعَب
ولما تُصغ شمسٌ ولا بدرٌ غيَّهَب^(٢٩)

تبيّن لنا عبر هذه شبكة النصّ الشعري أنّ الشاعر يعتمد إلى الاستجداد بالرسول الأعظم (ص)، لكي يحصل يوم الورود على نعيم الجنة وظلّه الوارف، فجاء شعره معبّرًا عن عواطف دينية وإيمانية صادقة مشحونة بالحبّ والوفاء.

إذا دققنا النظر في الظروف المحيطة بالمجتمع الأندلسي في كافة المستويات، السياسية، والاجتماعية، والدينية، والعقائدية، نجد أنّ فكرة الاستجداد قد نتجت عن هذه الظروف التوسع والحرجة، خاصّة في المجال الديني وضعف الأسس العقائدية في المجتمع الإسلامي. حاول الشاعر الأندلسي خلال المديح النبوي، تجسيد فكرة الشكوى من الدهر وما ألمّ بالمسلمين من كوارث وفتن، إثر نشوب الحروب ورواج مظاهر البذخ والتترف وانتشار الخبث والخيانة، مدرجًا الهموم الفردية والجماعية ضمن هذا النمط الشعري القيم. يصدر هذا عمّا آلت إليه أوضاع الأمة، ومن هنا يأتي دور الشاعر الأساس، وهو تعميق هذه المشاعر والأحاسيس المرهفة، وقد جاء هذا الشعور ممزوجًا بالشعور الديني والعاطفة الدينية الفيّاضة^(٣٠).

من البيّن خلال هذه الأشرطة الشعرية أنّ الشاعر حاول ضمن تجسيد فكرة الاستجداد، التعبير عن هذه الهموم، عرض نقده للمجتمع الإسلامي بكلّ ما فيه من عيوب ومثالب، محاولًا إصلاح هذا المجتمع الإنساني وترشيده نحو الالتزام بهديه الكريم واجتثاث الفساد من النفوس، أملًا في العفو، طالبًا عونه وشفاعته.

ثامنا: الدعاء والتضرّع والاستغفار:

هذا المحور الفكري عند الشاعر الأندلسي قد تم إصداره عن كاهل أثقلته الذنوب، وعن نفسية إنسان قد اعترف بالمعصيات والخطايا، لما وجد في النبي الأمين (ص) من شفاعاة لآتردّ، وقلعة منيعة يلتجئ إليها أبناء البشر. انطلاقاً من هذا الموقف، نجد الشاعر يلحّ على العودة إلى هذا النبع الصافي، تحقيقاً للأمن الروحي والنفسي للمجتمع الإنساني.

من المعلوم أنّ الشاعر الأندلسي وجد ههنا فرصة مؤاتية لما سلف منه من ذنوب في الأيام الماضية، فمن ثمّ اتخذ الدعاء وسيلة ناجعة وأداة مطواعة للتعبير عن المديح النبوي، تائباً إلى الله جلّ وعلا، وتوجّه من منطلق نفسي ذاتي إلى الرسول الأكرم (ص)، لأنّ جاه النبي كان ولا يزال عند الله تعالى أعظم وأكبر من تلك الذنوب التي اقترفها الشاعر، ومن ثم، يرجو الحصول على شفاعته ورحمته ولن يخيب من ذلك. وهكذا "يلجأ الشاعر إلى حمى رسول الله (ص) وإلى قلبه الرحيم، ليشفع له عند الله سبحانه وتعالى، أن يرحمه ممّا يعانیه من ذلّ وغربة، وفي اللجوء راحة وأمل، تستشعر بهما النفس المعذبّة" (٣١).

من نماذج قوله ما ورد:

واغفر إن يستغفري ذنوبهم	ومهما دعا داعٍ أحببهُ وأقرب
فقال إذن فاجعلهم ربّ أمّتي	فمن ترصّهُ يا ربّ يُرضَ ويرغِب
فقال هم في آخر الدهر	يعصّون أعدائي ويستنصرون بي
صفوتي دعائم إيمان وأركان سؤدد	مضت بغلاها مهدد بنت جلبج (٣٢)

تبين لنا خلال هذه الأشرطة الشعرية أنّ الشاعر يعمد إلى الاستغفار والصفح عنه من خلال المديح النبوي، فمن هذا المنطلق، نجده دوماً يستشفع النبي الكريم (ص)، وهو شفيح مشفع عند الله جلّ وعلا.

هناك دوافع جمّة ساقط الشاعر هذا المساق، منها ما راج في البيئة الأندلسية من مظاهر الترف والتلاعب بالمعتقدات الدينية، ثم ما رأى من انهيار الأسس الدينية وضعفها، وما جرى بين النحل والفرق الفكرية المختلفة من نزاع محتدم وتفرقة عميقة، فأراد من خلال الدعاء والاستغفار، التوحيد بين الفئات والشرائح المختلفة في البيئة الأندلسية، ثم تذكير الناس بيوم الفصل وضرورة نبذ الخلافات. كل ذلك كان يضفي على المدح النبوي مميّزًا محببًا يثير في كيان الأمة الإسلامية عواطف جياشة وأحاسيس مرهفة تعبّر عن أعماق وجدان الشعوب المسلمة تجاه الرسول الأمين والأسوة الحسنة.

النتائج:

توصلنا في نهاية البحث إلى هذه النتائج:

١- من خلال الدراسة والبحث والاطلاع على هذا الموضوع، قد توصلنا إلى أنّ المدائح النبوية شعر صادق يتغنى به الكثير من الشعراء، وتفوقوا بها، لأنّها فنّ ظهر وتطوّر خلال العصور السابقة إلى يومنا الراهن.

٢- أبدع ابن أبي الخصال الأندلسي في المدائح النبوية، وجعلها فنّاً ازدهر بسبب عصر أمراء الطوائف وبروز النكبات والمحن والحروب التي عانت منها البلاد، فأخذ شعراء الأندلس يلجئون إلى الرسول (ص)، وحرص الشعراء على نظم قصائد طويلة في تعداد مناقب النبي الأكرم تشفّعاً له. من الطبيعي أن يتغنى شعراء الأندلس بالمدائح النبوية، فالنبي الأمين (ص)، المثل الكامل لكل مسلم في تقواه ونسكه وورعه، وامثاله لأوامر ربّه، لأنّ الرسول (ص)، الشخصية الفذة التي استطاعت أن تنتشل الناس من الجهل والضلالة والحيرة إلى الهداية والرشاد. لذا فقد حضيت هذه الشخصية بحبّ الشعراء وإعجابهم وتقديرهم.

٣- تعالج هذه الورقة البحثية جانباً مهمّاً من المديح النبوي لدى الشاعر الأندلسي، فعلى الرغم من كثرة نتاجه الأدبي وجودته، إلا أنّ نصيبه من اهتمام النقاد والباحثين كان ضئيلاً، من هنا تعدّ هذه الدراسة فتحاً جديداً لجانب من أدب الشاعر الديني والكشف عن عاطفته المرهفة.

٤- تخصصت عبقرية الشاعر في البيئة الأندلسية في المستويات المختلفة خاصة في المدائح النبوية، ومن هنا يتضح أنّ إيمانه الصادق ناجم عن طبيعة متأصلة تفيض حباً للتعالم الدينية السمحة، وعشفاً للرسول الأمين (ص)، وهذا ما يظهر جلياً ضمن نتاجه الأدبي.

٥- تبين لنا من خلال هذه الدراسة أنّ الشاعر الأندلسي اتخذ المدح النبوي أداة طيعة ووسيلة ناجعة لتفريج كرب الأمة الإسلامية ليحصل من خلاله على القدوة والأسوة الحسنة استعادة لماضيها التليد والمجيد.

٦- إنّ المدح النبوي عند الشاعر يعبر عن قدر كبير من العناصر العاطفية والملاحم الذاتية التي تمثل واقع النفس وتجدد منازعه الوجداني. ومن ثمّ، يتسم شعره بالوضوح والعمق، وقد استمدّ الشاعر الكثير من أفكاره ومعانيه من الروافد الدينية، كالقرآن الكريم، والحديث الشريف، ومحاكاة شعراء المشاركة.

الهوامش:

١- المعجم في أصحاب القاضي الصدي، أبو علي حسين بن محمد ابن الأبار، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار صادر، بيروت، ١٩٨٩م، ص ١٢٥. ينظر: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي ابن خاقان، تحقيق حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، لبنان، ١٩٨٩م، ص ٥١٨.

٢- المطرب من أشعار أهل المغرب، عمر بن حسن بن دحية أبو الخطاب، دار العلم للجميع، بيروت، ١٩٥٥م، ص ١٨٧.
(٣)- المعجم في أصحاب القاضي الصدي، ص ١٢٥. انظر: بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس، أبو جعفر الضبي أحمد بن يحيى بن أحمد، دار الكتاب المصري، ١٩٨٩م، ص ٢٨٣.

٤- الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين أبي عبد الله محمد بن الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، مج ٣، ٢٠٠٩م، ص ١٠.

٥- رسائل ابن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨م، ص ١١. انظر: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلماهم ومحدثهم وفقهائهم وأدبائهم، أبو القاسم ابن بشكوال، تحقيق بشار عواد معروف، دار المغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٠م، ص ٢٢٥.

٦- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، مج ٣، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٤.

- ٧- المطرب من أشعار أهل المغرب، ص ١٨٨.
- ٨- المطرب من أشعار أهل المغرب، ص ١٨٨.
- ٩- المدائح النبوية في الأدب العربي، زكي مبارك، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٣٥م، ص ١٧.
- ١٠- أروع ما قيل في المديح، إميل ناصف، دار الجيل، بيروت، د.ت، ص ٢٥.
- ١١- المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، محمود سالم محمد، دار الفكر، دمشق - سوريا، ١٩٩٦م، ص ٥٥.
- ١٢- المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، ص ٦٧.
- ١٣- المدائح النبوية في الشعر الشعبي الجزائري، عبد اللطيف حني، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيذر، بسكرة، الجزائر، مج ٥، العدد ١، ٢٠١٢م، صص ٧٠-٦٩.
- ١٤- الصيّب والجهم والماضي والكهام، أبو عبدالله محمد بن عبدالله لسان الدين بن خطيب، شركة الوطنية للنشر، الجزائر، ١٩٧٣م، صص ٢٨١-٢٨٠.
- ١٥- الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء، أحمد فوزي الهيب، الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م، ص ١٠٠.
- ١٦- تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، شوقي ضيف، دار المعارف، ١٩٨٧م، ص ٣٧١.
- ١٧- فنية شعر المديح النبوي في الأندلس، عمر إبراهيم توفيق، مجلة جامعة كركوك، ٢٠١٠م، العدد ١، ص ٤.
- ١٨- فنية شعر المدح النبوي في الأندلس، ص ٢.
- ١٩- رسائل ابن أبي الخصال، صص ٦٣١-٦٣٠.
- ٢٠- المدائح النبوية، محمد علي مكي، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ١٩٩٠م، ص ١٠٣.
- ٢١- رسائل ابن أبي الخصال، صص ٣٩٤-٣٩٥.
- ٢٢- الحنين في الشعر الأندلسي في القرن السابع الهجري، محمد أحمد دقالي، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٨م، ص ٣٤٢.
- ٢٣- رسائل ابن أبي الخصال، صص ٣٩٣-٣٩٤.
- ٢٤- ابو عبد الله بن أبي الخصال، ص ٢٦٠.
- ٢٥- تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، ص ٣٧١.
- ٢٦- رسائل ابن أبي الخصال، ص ٢٦٦.
- ٢٧- رسائل ابن أبي الخصال، صص ٦٥٥-٦٥٤.
- ٢٨- رسائل ابن أبي الخصال، ص ٦٢٩.

- ٢٩- رسائل ابن أبي الخصال، ص ٦٢٩.
٣٠- المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، محمد، ص ١٣٤.
٣١- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، محمود رزق سليم، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٢٩١.
٣٢- رسائل ابن أبي الخصال، ص ٦٣٦.

المصادر والمراجع:

- ١- ابن الأبار، أبو علي حسين بن محمد، المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار صادر، بيروت، ١٩٨٩م.
٢- ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، لبنان، ١٩٨٩م.
٣- أبو الخطاب، عمر بن حسن بن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، دار العلم للجميع، بيروت، ١٩٥٥م.
٤- ابن الخطيب، لسان الدين أبي عبد الله محمد، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، مج ٣، ٢٠٠٩م.
٥- ابن بشكوال، أبو القاسم، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تحقيق بشار عواد معروف، دار المغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٠م.
٦- دقالي، محمد أحمد، الحنين في الشعر الأندلسي في القرن السابع الهجري، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٨م.
٧- رسائل ابن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨م.
٨- سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٦٢م.
٩- الضبي، أبو جعفر أحمد بن يحيى بن أحمد، بغية الملتبس في تاريخ أهل الأندلس، دار الكتاب المصري، ١٩٨٩م.
١٠- ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، دار المعارف، ١٩٨٧م.
١١- المقرئ التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج ٣، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م.
١٢- مبارك، زكي، المدائح النبوية في الأدب العربي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٣٥م.
١٣- محمود، سالم محمد، المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق - سوريا، ١٩٩٦م.
١٤- مكي، محمد علي، المدائح النبوية، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ١٩٩٠م.

١٥- ناصف، إميل، أروع ما قيل في المديح، دار الجيل، بيروت، د.ت.

١٦- الهيب، أحمد فوزي، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء، الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م.

المجلات والدوريات:

- المدائح النبوية في الشعر الشعبي الجزائري، عبد اللطيف حني، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيذر، بسكرة، الجزائر، مج ٥، العدد ١، ٢٠١٢م، صص ٧٠-٦٩.

